

المنهج التعليمي في كتاب سيبويه

د. خليل عبدالله عجينة

تمهيد

إنّ تعليم اللغة يعدّ من القضايا المهمّة والأساسية التي يدرسها علم اللغة الحديث بحثاً، وتطبيقاً وتقييماً؛ وذلك لأنّ علماء اللغة المحدثين يرون أنّ تعليم اللغة عملية تطوير إدراك متعمّق ومتيقّظ عند الطالب بغية استعمال اللغة في المجتمع (١)، وقد استجابت مهنة التعليم للمناهج النظرية التي تعنى بالتركيز على العملية الاتصالية في تعليم اللغة، وأهمية التعلّم التعاوني، وتطوير الوسائل التي تحقّق النجاح وتقدير

الذات (٢). ولا شكّ في أنّ هذه المناهج التي نعتد عليها في تعليم اللغة وفروعها مأخوذة ممّا توصّل إليه علماء اللغة أو التربية المحدثون في الغرب من خلال البحث العلمي أو التجارب الميدانية، أو التنظير الأدبي، ومن الواضح أنّنا نعوّل على هذه المناهج في عملنا تعويلاً كبيراً، وقد تكون هذه المناهج والأساليب لا تناسب طبيعة اللغة العربية وخصائصها، لذا كان من المفيد أن تكون لنا مناهج نصنعها نحن وذلك من خلال الاستفادة من تراثنا العريق والتطلّعات الحديثة في مجال علم التربية وعلم اللغة التطبيقيّ؛ حتى يكون لنا إسهام حقيقيّ في نهضة التعليم وخدمة اللغة العربية بروحنا الإبداعيّ وفكرنا الخاصّ.

موضوع البحث ومنهجه

وقد نظرت في "الكتاب" فوجدت سيبويه صاحب منهج تعليميّ مطّرد يدلّ على براعة هذا العالم اللغويّ الفنّ في إيصال المعلومة، وتوضيح المفهوم، وبناء التفكير العلميّ المنطقيّ لدى المتعلّم. ولا شكّ في أنّ من يقرأ "الكتاب" هذا العمل الفريد يجد صاحبه "روحاً خافقاً، وصوتاً قائللاً، يعرض على المتعلّم علمه، وينفي عنه الشبه، ويجلّو له الغوامض، لم يشأ أن تخفى شخصيته في الكتاب، فهو أستاذ ثقة ضليع لا يكاد يحسّ معه المتعلّم بالانفراد والوحشة حيث كان في الكتاب." (٣).

فأردت أن أستخرج منهج هذا المعلّم من ثنايا الكتاب وأوضّحه بصورة منظّمة، في رأيي أنّه لو قدر لسيبويه أن يكمل الكتاب لأشار إلى منهجه هذا في المقدمة التي لم يكتب لها أن تبصر النور حتى يبقى هذا العمل النفيس محطّ نظر أهل العلم بحثاً

ودراسة وتأويلاً.

وأقصد من هذا البحث هدفين أساسيين:
أ- إظهار المنهج التعليميّ الذي استطاع سيبويه أن يشرح فيه النحو والصرف، ويوضّح مفهوماته، وأن يبني لدى تلامذته ومن جاء بعده ممّن درس الكتاب الفكر العلميّ الذي ينبغي أن يتحلّى به الباحث، وذلك من خلال عمل سيبويه نفسه لا من خلال إسقاط الدراسات الحديثة عليه.

ب- الاستفادة من هذا المنهج العلميّ الواضح في أثناء تعليم النحو، أو أيّ علم من علوم اللغة العربية؛ لأنّنا كثيراً ما نعلّم النحو والصرف وغيرهما من علوم العربية من غير منهج تعليميّ واضح، أو أنّنا نستعين بمناهج تعليمية أجنبية، وتراثنا ينضح مناهج لم نستطع الاستفادة

منها، ولم نستطع ابتكار أخرى.

واعتمدت في بحثي هذا على المنهج الاستقرائي الوصفيّ؛ فأنطلقت من أبواب الكتاب، ووقفت على الأساليب المطّردة فيها التي اعتمد عليها سيبويه في إيصال مفهوم ما، أو شرح مسألة، أو توضيح قضية، فاستنبطت أربع طرائق تعليمية تميّز بها أسلوب "سيبويه المعلّم" وهو يشرح القضايا النحوية أو الصرفية، ووضّحت أهمية هذه الطرائق في جعل تعليم النحو حياً، وسهلاً، وممتعاً من جهة، وذا جدوى علمية ووظيفية وإبداعية من جهة أخرى لما فيه من أمور تُكسب الطالب المتعلّم مهارات البحث والتفتيش، وتجعله أقدر على فهم تراكيب اللّغة وأنظمتها ومعانيها ووظائفها الدلالية.

وقد اكتفيت بالاستشهاد بدليلين اثنين فقط يبيّنان كلّ طريقة من الطرائق الأربع المستنبطة، وضّحت من خلالهما ميزة كلّ

به بالنكرة، معتمداً على تأويل الكلام وتفسيره كما تعلم ذلك من أستاذه. وقد عرض ذلك كله بأسلوب حوار حيّ يحمل طالب العلم على تدبر المسألة من جهة، وعلى أن تتفتح لديه قرائح التعليل والتفسير اللغوي كما ورث ذلك عن أستاذه.

ب- "هذا باب علامة إضمار المنصوب المتكلم والمجرور المتكلم، اعلم أن إضمار المنصوب المتكلم "ني"، وعلامة إضمار المجرور المتكلم الباء، ألا ترى أنك تقول إذا أضمرت نفسك وأنت منصوب: ضربني وقتلني، وإنتي ولعلني، وتقول إذا أضمرت نفسك مجروراً غلامي، وعندني ومعني.

فإن قلت: ما بال العرب قد قالت: إنني وكأني، ولعلني، ولكنني؟ فإنه زعم أن هذه الحروف اجتمع فيها أنها كثيرة في كلامهم، وأنهم يستقلون في كلامهم التضعيف، فلما كثر استعمالهم إياها مع تضعيف الحروف حذفوا التي تلي الباء. فإن قلت: لعلني ليس فيها نون. فإنه زعم أن اللام قريب من النون، وهو أقرب الحروف من النون. ألا ترى أن النون قد تدغم مع اللام حتى تُبدل مكانها لام، وذلك لقربها منها، فحذفوا هذه النون كما يحذفون ما تكثر استعمالهم إياه" (٥).

وفي هذا النص يظهر سيبويه من خلال الحوار التعليمي معلماً حريصاً على أن يلفت طلابه إلى دقائق الأمور في أثناء التعلم، فلا يفوتهم شيء من الباب وما يتعلق به من قضايا، فبعد أن وضح بالأمثلة الوافية علامة إضمار المنصوب المتكلم والمجرور المتكلم، أثار سؤالاً على لسان الطالب الباحث يحتاج إلى تعليل

نكرة. قلت: فكيف يكون هذا إنما أراد علياً رضي الله عنه؟ فقال: لأنه لا يجوز لك أن تعمل لابي معرفة، وإنما تعملها في النكرة، فإذا جعلت أبا حسن نكرة حسن لك أن تعمل لا، وعلم المخاطب أنه قد دخل في هؤلاء المنكورين علي، وأنه قد غُيب عنها.

فإن قلت: إنه لم يُرد أن ينفي كل من اسمه علي؟ فإنما أراد أن ينفي منكورين كلهم في قضيته مثل علي، كأنه قال: لا أمثال علي لهذه القضية، ودل هذا الكلام على أنه ليس لها علي، وأنه قد غُيب عنها" (٤).

فإننا نلاحظ في هذا النص أن سيبويه المعلم يوضح عمل "لا" في النكرات دون المعارف من خلال حوار تعليمي يجعله بين ثلاثة أطراف:

- الطرف الأول: الخليل بن أحمد، أستاذه ومعلمه.

- الطرف الثاني: هو نفسه.

- الطرف الثالث: الطالب المتعلم.

فقد عرض القضية أولاً: "تقول قضيةً ولا أبا حسن، تجعله نكرة".

ثم بين الحوار الذي دار بينه وبين أستاذه حول تنكير "أبي حسن" وهو معرفة (علي رضي الله عنه)، موضحاً تعليل الأستاذ الذي أقتع سيبويه، فتبنتي ذلك التعليل، وراح ينقله هو نفسه إلى طلابه.

ثم إنه تنبه إلى شيء قد يُثير الاستغراب والاستفسار، فطرح سؤالاً على لسان الطالب بطريقة غير مباشرة: "فإن قلت: إنه لم يُرد أن ينفي كل من اسمه علي" كأنه يقول: فكيف يكون ذلك؟ ثم راح يوضح معللاً تعليل أستاذه المراد بالمجيء

منها وأهميتها في تعليم النحو أو أي فرع من فروع اللغة، بحيث يصبح المعلم منقاداً على المحاكاة والتطبيق مضيئاً إلى ذلك لمسات شخصيته، وفرائد تجاربه.

أساليب مطردة في منهج سيبويه التعليمي

أولاً: الحوار التعليمي

وهو أسلوب لا يكاد يُمارق "الكتاب"، اتسم به منهج سيبويه التعليمي، ويُعد أسلوباً حياً يجعل صاحبه معلماً متيقظاً لما قد يخطر في بال طلابه من أسئلة أو استفسارات حول موضوع ما، أو أسلوب تعبيريّ مُعين، وهو مع ذلك يعي قدرات طلابه الاستيعابية فيتولى عنهم طرح الأسئلة الاستفسارية، ويشاركهم النقاش والتحليل حتى يطمئن على أن فكرته قد وصلت إلى الطلاب، وعلى أن هواجسهم قد بُدّت، وحيرتهم قد زالت، واستقرت عندهم المعرفة بالشيء.

ولا شك في أن الحوار التعليمي، والنقاش العلمي يُعدان ركناً أساسياً في العملية التعليمية، تُكسب كلاً من المعلم والمتعلم سعة في الأفق، وزيادة في التفكير والتحليل، وثقة بالنفس، ويبدو لي أن سيبويه قد فطن لذلك، فكان حواراه في "الكتاب" يدل على براعة في تعليم موضوعات اللغة صرفاً ونحواً من جهة أن الأسئلة التي كان يُثيرها في معرض الحوار تُعنى بالبحث عن أمور دقيقة توضح وجوه القاعدة أو تعللها.

ومن الشواهد الواردة في "الكتاب" الدالة على "الحوار التعليمي" ما جاء في الموضوعات الآتية:

أ- "وتقول قضيةً ولا أبا حسن، تجعله

وتوضيح لأمثلة تُخالف تلك التي قدّمتها له منذ قليل:
"فما بالّ العرب قد قالت: إنّي، وكأني..؟" ثمّ راح يوضّح له ذلك وفق ما تعلّمه من أستاذه.

ثمّ وجد أنّ تعليقاته وتفسيراته قد ينقضها شيءٌ من كلام العرب، فعرض دليلاً مخالفاً لما يذهب إليه على لسان الطالب الباحث: "فإن قلت: لعليّ ليس فيها نون"، ثمّ قدّم له الإجابة الشافية التي تعلّمها من أستاذه الخليل، ووعاها عنه مدّعمة بالأدلة العلمية التي تظهر جلياً في سنن كلام العرب.

وهو بذلك كلّه حريصٌ على أن يجعل الطالب باحثاً، ومُحلّلاً، غير مكفّ بالإمام السطحيّ بموضوعات اللغة وتراكيبها الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة، ولا شكّ في أنّ مثل هذا الأسلوب في تعليم النحويّ كسب الطالب المتعلّم مهارات البحث والتفتيش، وتجعله أقدر على فهم تراكيب اللغة وأنظمتها ومعانيها ووظائفها الدلالية.

ثانياً: تقديم المبحث تقديمًا منظمًا ووافياً:

- إنّ الذي يجلس بين يدي سيبويه متعلّمًا يستطيع أن يلتصق في أسلوبه دقّة وتنظيمًا في تقديم مباحث كثيرة، تجعل الطالب أقدر على فهم موضوعات المبحث، وعلى استذكارها، وعلى حسن الربط بينها، كما تُكسبه مهارة أساسيّة من المهارات التي يمكن أن يملكها مُعلّمٌ لطلابه من خلال منهج تعليميّ وهي مهارة حسن تنظيم المعارف، والمفهومات العلمية، ولا شكّ في أنّ هذه المهارة تُعدّ من المهارات الأساسيّة التي

تجعل التفكير العلميّ أكثر دقّة، وأوضح حجّة، وأبين تحليلاً. وإنّ سيبويه بالرغم من غموض عباراته في بعض الأحيان، فإنّه يتميّز بحسن تنظيم موضوعات المبحث الذي يُقدّمه تنظيمًا مترابطًا ترابطًا علميًا دقيقًا؛ ولعلّ هذا ما يجعله مُعلّمًا بارعًا في تقديم درسه النحويّ، وهو أسلوب يحتاج إلى أن يتمرّس به كلُّ مُعلّم اللغة أو أحد فروعها لأمرين:

- أمّا الأوّل فهو أن يجعل علوم اللغة وفروعها تتميّز بالدقّة العلميّة التي يتميّز بها أيّ علم من العلوم الأخرى، وهو أمر يُعرّز قيمة العلوم اللغويّة لدى متعلّميها والقارئ لها من جهة ارتباطها الوثيق بالسّمات والخصائص العلميّة التنظيميّة المترابطة لأيّ علم من العلوم.

- وأمّا الثاني فهو بناء خريطة نحويّة أو صرفيّة واضحة المعالم لدى المتعلّم تجعله قادرًا على فهم المباحث، والربط بينها، واستذكارها، وتعليمها من بعد. ويُعدّ هذا الأمر من الأمور الأساسيّة التي ينبغي أن يلتصق إليها معلّم اللغة وفروعها في تأسيس العلوم في أذهان المتعلّمين؛ إذ إنّنا نرى أنّ كثيرًا من معلّمي اللغة، ومتعلّميها يمتلكون المعارف والمفهومات اللغويّة بصورة غير منتظمة أو مترابطة وفق خريطة نحويّة أو صرفيّة ضابطة، فتراهم غير قادرين على الربط المنطقيّ بين المباحث والموضوعات بطريقة تجعل النّحو أو الصّرف علمًا واضح المعالم والحدود والوظائف، كما ينظر الواحد منّا إلى أيّ علم من

العلوم الأخرى.

ومن الأمثلة التي تدلّ على ذلك:

أ- "هذا باب اللفظ للمعاني، اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيّين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللفظين واختلاف المعنيّين، وسترى ذلك إن شاء الله تعالى. فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيّين هو نحو: جلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق، واتّفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموحدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالّة. وأشباه هذا كثير." (٦) فمن الملاحظ أنّ سيبويه قد بينّ أولًا الأضرب الثلاثة التي يكون عليها اللفظ والمعنى، وربّ ذكر هذه الأضرب ترتيبًا متناسقًا، فبدأ بالاختلاف جميعًا، ثمّ باختلاف اللفظين، ثمّ باختلاف المعنيّين، وبعد هذا وضّح هذه الأضرب بالأمثلة بعد أن كرّر ذكرها لتكون أثبت لدى الطالب في الذهن. ولا شكّ في أنّ تقديم هذا المبحث بهذا التّنظيم الدقيق، والوضوح المعلّم يجعل للتّعليم معنى أسمى من أن يكون مجرد تقديم المعارف والمفهومات من دون رعاية حسن تنظيمها، والدراية في إيصالها وتثبيتها.

ب- "هذا باب علم ما الكلم من العربيّة: فالكلم: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجلٌ وفرسٌ وحائط.

وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع.

فأما بناء ما مضى فذهب، وسَمِعَ،

بمعزل عن الاستعمال اللغوي أو بمنأى عن اهتمام المتكلمين بها.

وهذا الأسلوب يبدو واضحاً وجلياً في "الكتاب"، وهذا ما جعل سيبويه يسبق المحذّثين في الحديث عن ارتباط التراكيب اللغوية بالسياق اللغوي، والحديث عن وظيفة اللغة من جهة أخرى.

فربط المبحث النحوي بالاستعمال اللغوي، يجعل الطالب أعمق فهمًا للتراكيب النحوية، وأقدر على تحليلها وتفسيرها بالمقارنة مع غيرها من التراكيب التي ترد في سياقات مختلفة.

ويظهر هذا الأسلوب في "الكتاب" من خلال النصوص التي يسوق فيها سيبويه موقفاً معيناً يتطلب التعبير بتركيب نحوي ما، فيشير الموقف، ويُقدّم التركيب المناسب، ويُفسّره ويُعلّل استعماله في ذلك الموقف، وقد يُقارن هذا الاستعمال باستعمال آخر في موقف مغاير. وهو بذلك كلّ، يجعل النحومادة حيّة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحيات الطالب، فيقدّم مباحثه تقديمًا وظيفيًا لا قوالب جامدة لا روح فيها ولا حياة؛ وإنّما بحاجة إلى مثل هذا الأسلوب الذي تميّز به سيبويه في تقديم النحو وتعليمه.

ومن الأمثلة على ذلك:

أ- "هذا بابٌ يكون المبتدأ فيه مُضمراً ويكون المبنيّ عليه مظهرًا، وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: "عبد الله وربّي"، كأنك قلت: ذلك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آية على معرفته فقلت: زيد وربّي، أو مسست جسداً أو شممت ريحاً فقلت زيدا أو المسك،

ذكر المضارع، وفي هذا دليل آخر على دقّة رسم الخريطة النحويّة.

ومن جهة أخرى فإنّ الأمثلة التي قدّمها عن الأفعال كانت وافية، شاملة راعى فيها الميزان الصريح كلّ: ذَهَبَ: فَعَلَ، وَسَمِعَ: فَعَلَ، وَمَكَّتَ: فَعَلَ، وَذَهَبَ: افْعَلَ، وَأَقْتَلَ: افْعَلَ، وَاضْرَبَ: افْعَلَ وكذلك في أوزان المضارع، كما عرض فيه لأمثلة المعلوم والمجهول (مكث، وحُمِد، يَضْرِبُ، ويُضْرَبُ)، وضَمَّ همزة الأمر، وكسرهما.

هذا وإنّ الأمثلة التي قدّمها ليوضّح مفهوم الحرف الذي جاء معنى وليس باسم ولا فعل لم تكن مُختارة عشوائياً، وليس فيها تكرار، بل كان منها ما هو مختصّ دخوله على الاسم مثل واو القسم ولام الإضافة، ومنها ما هو مختصّ دخول على الفعل مثل سوف، ومنها ما يدخل على الاسم والفعل مثل ثمّ.

وكلّ ذلك يدلّ دلالة واضحة على أنّ هذا المعلم مُحيطٌ بالعلم الذي يُمليه على طلابه، وقادرٌ على أن يُقدّمه بطريقة منمنّمة وأمثلة وافية تميّز بالدقّة والشموليّة.

ثالثاً: ربط المبحث بالاستعمال اللغوي:

وفي رأيي أنّ هذا الأسلوب في تعليم اللغة نحوًا وصرفاً وبلاغة يُعدُّ من الأساليب التي ينبغي على مُعلّم اللغة أن يوليها اهتماماً وأهميّة بالغة وهو يُقدّم لطلابه الأساليب التعبيريّة، والتراكيب النحويّة، وذلك لما فيه من تعزيز الجانب المعنويّ للغة، ووظائفها الدلاليّة، لا على أنّها مجرد أفاضل شكلية توصفُ وتُقدّم

ومكّث، وحُمد. وأمّا بناء ما لم يقع فإنّه قولك أمرًا: اذهب، واقتل، واضرب، ومُخبرًا يَقْتُلُ ويذهب ويضرب ويقْتُلُ، ويضرب. وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت.

فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة ستبيّن إن شاء الله. والأحداث نحو الضرب والحمد والقتل. وأمّا ما جاء معنى وليس باسم ولا فعل فنحو: ثمّ، وسوف، وواو القسم ولام الإضافة ونحوها" (٧)

يُعدُّ هذا النصّ من النصوص التي تدلّ على دقّة التنظيم من جهة، وعلى الشموليّة التي قدّمها سيبويه لهذا المبحث من جهة أخرى، وكلا الأمرين يُظهر أسلوب سيبويه البارِع في تقديم الموضوعات تقديمًا علميًا دقيقًا وافياً.

فمن الملحوظ أنّ المعلم في هذا المبحث بيّن أنواع الكلمة، فهي اسم وفعل وحرف جاء معنى، ثمّ انتقل إلى تقديم الأمثلة التي توضّح كلّ نوع بادئاً بما بدأ به في تقسيمه وهو الاسم، منتهيًا بما انتهى به وهو الحرف.

ثمّ نلاحظ أنّ الأمثلة التي قدّمها ليوضّح كلّ نوع من الأنواع كانت شاملة وافية، فقدّم ثلاثة أمثلة للاسم مختلفة، والأوّل يدلّ على إنسان (رجل) والثاني يدلّ على حيوان (فرس) والثالث يدلّ على جماد (حائط)، وهذا دليل على دقّة اختيار الأمثلة التي توضّح الموضوع وتقي به.

ثمّ نلاحظ دقّة تقسيم الفعل إلى ماضٍ وأمر ومضارع، فقدّم الأمر على المضارع، لأنّ الأصل في الفعل البناء لا الإعراب في مذهبه، فإنّه ذكر الماضي والأمر وهما ما يكون الفعل معهما مبنياً، ثمّ

فقد يكون محسوساً كالضرب أو القتل في الأمثلة التي قدّمها، أو يكون معنوياً كالحمد ونحو ذلك.

ب- "هذا باب الاستقالة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسن، ومُحال، ومنه مستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فنقول: أتيتك أمس وسأتيك غداً. وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بأخريه فنقول: أتيتك غداً، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فنقول: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكى زيداً يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس". (١١)

يوضّح سيبويه في هذا النصّ مبحثاً مهمّاً من مباحث النحو، بل هو جوهر مجال دراسة النحو وهو "التراكيب"، ويعرض خمسة نماذج من المركّبات الفعلية، ويشير من خلال الأمثلة التي قدّم إلى أنّ التراكيب النحوية إمّا أن تكون صحيحة ومقبولة، وإمّا أن تكون غير مقبولة وذلك من خلال العلاقات التي تربط عناصر هذه التراكيب، فسيبويه لم يوضّح مفهوم المستقيم الحسن بأنّه المركّب الذي يكون بين عناصره علاقات نحوية منتظمة، أمّا المستقيم القبيح فسيبويه خلل في ترتيب عناصر الجملة، الأمر الذي يؤدّي إلى تركيب لا يسمح به نظام العربية. فقد اكتفى سيبويه بالأمثلة الدقيقة التي توضّح مفهوم كلّ من النماذج الخمسة من المركّبات.

ولعلّ اللافت في طريقة سيبويه هذه

في اللغة يستطيع المعلّم أن يقدّمها لطلابه من خلال الأمثلة والشواهد فحسب، ولا حاجة في ذلك إلى تقديم التعريفات المنطقية أو التعليقات العلمية؛ لأنّ الإشارة في كثير من الأحيان تكون أفصح من العبارة، ونحن نرهب طلابنا - من غير المتخصّصين - بالتعريفات والشروحات التي تزيدهم نفوراً من النحو، وبإمكاننا أن نكتفي بتقديم الأمثلة والشواهد الدقيقة التي تُفني عن الشرح والتعليل إذ الهدف من ذلك كلّهُ أن تعمّ الفائدة، ويصل المفهوم.

ومن الشواهد الواردة في "الكتاب" الدالة على طريقة سيبويه هذه ما جاء في الموضوعات الآتية:

أ- "هذا باب علم ما الكلم من العربية، فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجلٌ وفرسٌ وحائطٌ، وأمّا الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع والأحداث نحو الضرب والحمد والقتل...". (١٠)

فاكتفى سيبويه بتقديم أمثلة توضّح الاسم وتحدّد طبيعته من دون أن يعرفه تعريفاً علمياً. كما اكتفى بتقديم أمثلة توضّح مفهوم الحدث أو المصدر من غير أن يوضّحها بالشرح والتفسير، إذ يستطيع الطالب أن يفهم من خلال الأمثلة التي قدّمها أنّ الاسم إمّا أن يدلّ على جثّة وإمّا أن يدلّ على حدث، فما دلّ على جثّة فهو الاسم الجامد الذي يدلّ على الإنسان (رجل)، أو الحيوان (فرس)، أو الجماد (حائط)، بحسب الأمثلة التي يقدّمها سيبويه، وأمّا الاسم الذي يدلّ على حدث

أو ذقت طعاماً فقلت: "العسل"، ولو حدّثت عن شمائل رجل فصار آية لك على معرفته لقلت:

"عبد الله"، كأنّ رجلاً قال: "مررت برجل راحم المساكين بار بوالديه فقلت: فلان والله". (٨)

لا يخفى ما في هذا النصّ من دقّة في ابتكار المواقف والسياقات اللغوية التي استطاع سيبويه من خلالها أن يثبّت القاعدة، ويركّز استعمال التركيب، ويوضّح تعليله.

ب- "هذا باب ما يضمّر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي، وذلك قولك، إذا رأيت رجلاً متوجّهاً وجهة الحاجّ، فأصدّاً في هيئته الحاجّ، فقلت: "مكّة وربّ الكعبة، حيث زكنت أنّه يريد مكّة"، كأنك قلت: "يريد مكّة والله"، ويجوز أن تقول: "مكّة والله" على قولك أراد مكّة والله، كأنك أخبرت بهذه الصّفة عنه أنّه كان فيها أمس، فقلت مكّة والله، أي أراد مكّة إذ ذاك". (٩) وفي هذا النصّ تفسير آخر لتركيب نحويّ يسوقه سيبويه له سياقاً لغوياً ليقربّه من ذهن الطالب، ويجعله أوضح عنده وأبين.

رابعاً: الاكتفاء بالأمثلة من دور التعليل والتفسير

وهو طريقة واضحة المعالم في "الكتاب"، ينهجها سيبويه في تقديم بعض الأبواب، أو المباحث فيكتفي بتقديم الشواهد أو الأمثلة من دون أن يوضّح الموضوع الذي يعرضه توضيحاً بيّناً عناصره، أو يشرّحها، ولعلّ في ذلك إشارة واضحة إلى أنّ ثمة مباحث أو موضوعات

اللغويّة الحديثة في العالم الغربي، وإن كان من الضرورة الإفادة من تلكم الدراسات والتجارب والمشاركة في هذا المجال من علم اللغة التطبيقيّ، ولا شكّ في أنّ البحث في التراث يعدّ عاملاً داعماً في الدرس الحديث، وسيبويه واحد من هؤلاء الأئمة الذي استطاع أن يقدّم الدرس اللغويّ من خلال منهج تعليميّ مطّرد يمكن الإفادة منه في تعليم اللغة العربيّة، وتطويره بما يناسب مناهجنا الحديثة، كذلك يمكن أن يكون موضوع أبحاث علميّة حديثة تعنى بالتراث والدرس الحديث.

ومناهج مختلفة في العمل بحثاً ودراسة واستنتاجاً وتعليقاً وتصنيفاً، كان لهم أيضاً طرائق ومناهج في التعليم لا تقلّ أهميّة عن مناهجهم ومذاهبهم في العمل اللغويّ نفسه، ولولا ذلك لما كان لهم تلامذة استطاعوا أن يأخذوا عنهم العلوم والآراء ويتناقضوا خلفاً عن سلف، وإنّ البحث في منهج هؤلاء الأئمة في تعليم اللغة وتقديمها، يعدّ من القضايا التي ينبغي على الباحثين والمهتمين في شؤون اللغة وتعليمها أن يلتفتوا إليها، ويهتموا بها في هذا الزمن لأنّ قضايا تعليم اللغة وما يتعلّق بها من طرائق ووسائل وأساليب باتت في درجة متقدّمة من سلّم الدراسات

هو دقّة الأمثلة التي يُقدّمها لتوضيح المفهوم، وإصابة الغاية؛ وهي مسألة يجب أن يلتفت إليها مُدرّس اللّغة إن أراد أن تعتمد عليها في تقديم أيّ مبحث من مباحث اللّغة مكتفياً بالشواهد والأمثلة من دون التعليل والتفسير.

خلاصة البحث

إنّ تراثنا اللغويّ يشهد لعلماء جهابذة وهبوا حياتهم للعلم بحثاً ودرساً وتأليفاً وتعليماً، فكانت نتاجاتهم مظانّ الدراسات والأبحاث اللغويّة حتّى عصرنا هذا، ولا شكّ في أنّ هؤلاء العلماء المعلمين الذين كانت لهم مدارس ومذاهب وآراء

الهوامش

- ١- زكريا، ميشال، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ١٩٨٥، ص ٩.
- ٢- بروان، دوجلاس، أسس تعليم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي، دار النهضة العربية، ١٩٩٤، ص ٢٣.
- ٣- ناصيف، علي نجدي، سيبويه إمام النحاة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ص ١٨٦.
- ٤- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، لبنان، الطبعة الأولى، ج ٢/٢٩٧.
- ٥- المصدر نفسه، ج ٢/٣٦٩، ٣٦٨.
- ٦- المصدر نفسه، ج ١/٢٤.
- ٧- المصدر نفسه، ج ١/١٢.
- ٨- المصدر نفسه، ج ٢/١٣٠.
- ٩- المصدر نفسه، ج ١/٢٥٧.
- ١٠- المصدر نفسه، ج ١/١٢.
- ١١- المصدر نفسه، ج ١/٢٦، ٢٥.